

الملائكة والسيطين

المحاضرة ٧: الخضم

أ.ر. سي. سرول

نصل الآن في دراستنا للعقيدة الكتابية عن الملائكة إلى دراسة أشرف مخلوق على الإطلاق، وهو فعلياً جوهر الشر، ويدعى الشيطان. يجب أن أعترف بأنني أشعر بشيء من الخوف والتخوف حيال التعليم عن موضوع الشيطان. أذكر أنه حين كتب سي. إس. لويس كتابه الشهير "رسائل خنزير"، شهد بعد ذلك عن مروره بفترة من الإكتئاب بينما كان يكتب ذلك الكتاب، وراوده شعور قوي بالضغط من الموضوع الذي يكتب عنه، وهو الشيطان نفسه. أشعر دائماً ببعض الخوف والرعدة حين نبدأ الحديث عن الشيطان، لأن التناول النظري للشيطان، أو دراسته من منظور عقائدي يحدت يختلف كثيراً عن وفوفنا وجهاً لوجه أمام التعليم الكتابي عن الشيطان، الذي هو العدو اللدود للقديسين. فثمة سبب وجيه لتوخي الحذر الشديد.

دعوني أبدأ بالقول إنني أتذكر ذات مرة أنني كنت أعلم في صف بالجامعة، وسألت الطلاب بالصف كم منهم يؤمن بوجود الله. كان لدي ٣٠ طالباً بالصف، ورفع الثلاثة أيديهم. ثم قلت: "حسناً، كم منكم يؤمن بوجود الشيطان؟" فرفع ثلاثة طلاب أيديهم، وفاجأني ذلك. فقلت: "لماذا تؤمنون بالله وليس بالشيطان؟" فقد أدرجوا الشيطان في الحال ضمن فئة السحرة، والعقاريات، والعيبيات المخيفة، وأنزلوه إلى مرتبة الخرافات. فقلت: "مهلاً، إن عرفنا الله بأنه كائن روجي غير منظور، قادر أن يؤثر في البشر إيجاباً - وجميعكم وافق على ذلك - فما المشكلة في التحدث عن كائن روجي قادر على التأثير في البشر سلباً؟ فكلاهما غير منظور، لكن في الوقت ذاته لدينا براهين جلية في التاريخ على تفشٍ للشر يفوق الوصف".

لكن مجدداً، حين ضغطت على الطلاب، علمت أنهم يربطون الشيطان بالخرافات، حتى إن أحدهم قال: "من المؤكد أنك لا تؤمن بذلك الكائن الذي يرتدي ستره حمراء، ويحمل مذراً، ولديه حوافر مشقوقة، وتخرج قرون من رأسه؟" فقلت: "لا، لست أؤمن بأن الشيطان كائن يرتدي ستره حمراء، وما إلى ذلك". وقلت: "لكن من أين أتينا بتلك الصورة للشيطان التي نراها في عيد الهالوين، أو في الرسوم الهزلية؟". قلت: "هذه الصورة للشيطان - ذلك الكائن اللابس ستره حمراء ولباساً ضيقاً وما إلى ذلك - تعود إلى العصور الوسطى، عندما كان الشعب المسيحي على وعي تام بحقيقة العالم الروجي، ولا سيما بحقيقة الشيطان، واتخذوا خطوات للدفاع عن أنفسهم من مكائده. وفي دراساتهم، أرادوا اكتشاف موطن الضعف في طبيعة الشيطان، واستنتجوا أن أكبر نقطة ضعف لديه هي كبرياؤه. فهاجموه من تلك النقطة، عبر رسم تلك الرسوم السخيفة له، كي يسخروا منه. لم يكن أحد في الكنيسة آنذاك يؤمن

بِأَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ حَقًّا كَائِنٌ يَرْتَدِي سُتْرَةَ حَمْرَاءَ، وَيَحْمِلُ مِذْرَاءَ صَغِيرَةً، إِلَى آخِرِهِ. وَقُلْتُ، كَانَ الْعَرَضُ مِنْ هَذِهِ الصُّورَةِ هُوَ صَدُّهُ بِالْهَجُومِ عَلَى كِبَرِيَّائِهِ.

حَسَنًا، فَلْنُكْرَسْ بَعْضَ الْوَقْتِ لِتَنَاوُلِ مَا يَقُولُهُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ عَنِ الشَّيْطَانِ. اسْمُ "الشَّيْطَانِ" نَفْسُهُ مَعْنَاهُ "الْحُضْمُ". وَأَطْلُقُ أَنَّ هَذَا الْإِسْمَ مَلَأِيمٌ لِأَنَّهُ يُعَبَّرُ عَنْ طَبِيعَتِهِ. فَهُوَ لَيْسَ مُجَرَّدَ رَيْبِ شَيَاطِينٍ، مُدْمِنٍ عَلَى الشَّرِّ، لَكِنَّهُ الْعَدُوُّ لِكُلِّ مَا هُوَ صَالِحٌ. فَهُوَ الْعَدُوُّ وَالْحُضْمُ لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْمَسِيحِ. وَبِالطَّبْعِ، أَكْثَرُ عَدُوٍّ مُحْتَقَرٍ لَدَيْهِ هُوَ الْمَسِيحُ نَفْسُهُ. تَنَدَكَّرُ أَنَّهُ عِنْدَ السُّقُوطِ، عِنْدَمَا كَانَ رَدُّ فِعْلِ اللَّهِ تَجَاهَ سُقُوطِ آدَمَ وَحَوَاءَ هُوَ صَبُّ لَعْنَةٍ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَعْنَةٍ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَلَعْنَةٍ عَلَى الرَّجُلِ، صَبُّ لَعْنَتِهِ أَيْضًا عَلَى الْحَيَّةِ، الَّتِي أَغْوَتْ آدَمَ وَحَوَاءَ، وَقَالَ إِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ فَصَاعِدًا سَتَسْعَى عَلَى بَطْنِهَا. ثُمَّ تَنَبَّأَ بِأَنَّ يَسْحَقَ نَسْلَ الْمَرْأَةِ رَأْسَ الْحَيَّةِ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، سَتَسْحَقُ الْحَيَّةُ عَقِبَ نَسْلِ الْمَرْأَةِ. دُسِّمِي ذَلِكَ "بِرُوثُو إِبْرَاهِيمَ"، أَوْ الْوَعْدَ الْأَوَّلَ لِلْإِنْجِيلِ، الَّذِي قُطِعَ مِنْ وَسَطِ اللَّعْنَةِ. فَقَدْ قُطِعَ وَعُدُّ بِالْفِدَاءِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ، حَيْثُ سَيَسْحَقُ رَأْسَ الْحَيَّةِ. لَكِنَّ مِنْ تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وَخِلَالَ بَقِيَّةِ تَارِيخِ الْفِدَاءِ، ظَهَرَ الشَّيْطَانُ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ بِصِفَتِهِ حُضْمًا لِشَعْبِ اللَّهِ.

مِنْ الْمُهْمِ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ نَنْظُرُ إِلَى الشَّيْطَانِ مِنْ مَنْظُورِ دِرَاسَتِنَا الْأَوْسَعِ فِي هَذِهِ السِّلْسِلَةِ، لِلْمَلَائِكَةِ. فَبِغِي تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ، كَمَا ذَكَرْتُ قَبْلًا، حَدَثَ تَحْرِيفَانِ كَبِيرَانِ لِشَخْصِ الشَّيْطَانِ وَعَمَلِهِ. التَّحْرِيفُ الْأَوَّلُ هُوَ الْإِنْتِقَاصُ مِنْ حَقِيقَتِهِ، بَلْ وَإِنْكَارُ وُجُودِهِ مِنَ الْأَسَاسِ، وَعَدَمُ أَخْذِهِ عَلَى مَحْمَلِ الْجِدِّ عَلَى أَنَّهُ حُضْمٌ رُوحِي حَقِيقِي لَنَا.

التَّحْرِيفُ الثَّانِي هُوَ نَسْبُ قُوَّةٍ وَأَهْمِيَّةٍ إِلَيْهِ تَفُوقُ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ بِالْفِعْلِ. كَثِيرًا مَا تَأَثَّرَتِ الْكَنِيسَةُ بِالِدِيَانَاتِ الثَّنَائِيَّةِ، الَّتِي تَعْتَبِرُ أَنَّ قُوَّةَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالنُّورِ وَالظُّلْمَةِ، هِيَ قُوَى مُتَسَاوِيَةٌ وَمُتَضَادَّةٌ، تَتَنَاقَسُ فِيمَا بَيْنَهُمَا عَلَى السِّيَادَةِ الْمُطْلَقَةِ. لَكِنَّ الْمَنْظُورَ الْكِتَابِيَّ لَا يَعْرِفُ مِثْلَ هَذِهِ الثَّنَائِيَّةِ، لِأَنَّ الصِّرَاعَ بَيْنَ اللَّهِ وَالشَّيْطَانِ لَيْسَ تَنَاقُصًا مُتَكَافِئًا عَلَى الْإِطْلَاقِ. فَالشَّيْطَانُ مَخْلُوقٌ. فَهُوَ كَائِنٌ مَخْلُوقٌ. وَهُوَ دَائِمًا وَفِي كُلِّ مَكَانٍ خَاضِعٌ لِقُوَّةِ الْخَالِقِ السِّيَادِيَّةِ وَسُلْطَانِهِ. وَهُوَ لَيْسَ بِأَيِّ حَالٍ خُضْمًا مُسَاوِيًا لِلَّهِ نَفْسِهِ. وَكَمَخْلُوقٍ، هُوَ لَا يَتَّصِفُ بِأَيِّ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ غَيْرِ الْقَابِلَةِ لِلنَّقْلِ.

حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنْ صِفَاتِ اللَّهِ فِي الْعَقِيدَةِ عَنِ اللَّهِ، نُمَيِّزُ بَيْنَ الصِّفَاتِ الْقَابِلَةِ لِلنَّقْلِ وَعَنِ الْقَابِلَةِ لِلنَّقْلِ. الصِّفَاتُ الْقَابِلَةُ لِلنَّقْلِ هِيَ الصِّفَاتُ الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا اللَّهُ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَنْقُلَهَا لِإِنْتِهَا، أَوْ إِلَى الْمَخْلُوقِ، بِدَرَجَةِ أَقْلٍ. فَبِمَكَانِنَا أَنْ نُظْهِرَ الصَّلَاحَ مَثَلًا - لَيْسَ كَمَالِ الصَّلَاحِ الْمَوْجُودِ فِي اللَّهِ، بَلْ اللَّهُ، الْكَائِنُ الصَّالِحُ، يَنْقُلُ إِمْكَانِيَّةَ الصَّلَاحِ إِلَى مَخْلُوقَاتِهِ. إِذَنْ، هَذِهِ صِفَةٌ قَابِلَةٌ لِلنَّقْلِ. أَمَّا الصِّفَاتُ غَيْرُ الْقَابِلَةِ لِلنَّقْلِ فَهِيَ الصِّفَاتُ الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا اللَّهُ، وَلَيْسَ فَقَطْ لَا تَنْقَلُ إِلَى الْمَخْلُوقِ، بَلْ لَا يُمَكِّنُ صِرَاحَةً نَقْلَهَا إِلَى الْمَخْلُوقِ.

فَمِنَ الْأُمُورِ الَّتِي مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ اللَّهَ يَعْجِزُ عَنَ فِعْلِهَا هُوَ خَلْقُ إِلَهٍ آخَرَ، لِأَنَّهُ مَا أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ إِلَهًا ثَانِيًا، لَنْ يَكُونَ إِلَهُ الْغَايَةِ أَرْثِيًا، بَلْ سَيَكُونُ مَخْلُوقًا، بِحُكْمِ طَبِيعَتِهِ. فَسَتَكُونُ لَهُ بَدَايَةٌ فِي الزَّمَنِ، مِنْ لِحْظَةِ خَلْقِ الْخَالِقِ الْأَصْلِيِّ لَهُ. إِذَنْ، حَتَّى اللَّهُ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَخْلُقَ إِلَهًا آخَرَ، لِأَنَّ كُلَّ مَا يَخْلُقُهُ اللَّهُ يَكُونُ، بِحُكْمِ طَبِيعَتِهِ، مَخْلُوقًا.

لَكِنْ أحيانًا، وَبِسَبَبِ اسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَى اهْتِمَامِنَا، نَتَسَرَّعُ فِي نَسْبِ صِفَاتٍ إِلَيْهِ تَنْتَبِي إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ. حَدَرَ مَارْتِنُ لُوْتِرُ شَعْبَهُ بِشَأْنِ حَقِيقَةِ الشَّيْطَانِ الْجَلِيَّةِ، وَقَالَ: "الشَّيْطَانُ قَرِيبٌ مِنْكَ كَثِيرًا". فَإِنْ كُنْتَ تَرْتَدِي قَمِيصًا، فَمَارْتِنُ لُوْتِرُ يُحَدِّثُكَ مِنْ أَنَّ الشَّيْطَانُ قَرِيبٌ مِنْكَ قُرْبَ قَمِيصِكَ مِنْ جَسَدِكَ. أَخْتَلَفَ مَعَ لُوْتِرَ فِي ذَلِكَ. وَأَرَى أَنَّهُ حِينَ تَحَدَّثَ لُوْتِرُ عَنَ قُرْبِ الشَّيْطَانِ مِنَ الْبَشَرِ، كَانَ يَتَحَدَّثُ مِنْ وَاقِعِ خِبْرَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ، وَلَيْسَ مِنْ وَاقِعِ تَفْسِيرِهِ الْكِتَابِيِّ، لِأَنَّهُ مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ مَارْتِنَ لُوْتِرَ كَانَ يُدْرِكُ أَنَّ الشَّيْطَانَ، كَمَخْلُوقٍ، لَا يَمْلِكُ قُدْرَةَ الْوُجُودِ الْكُلِّيِّ، وَأَنَّهُ كَمَخْلُوقٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَكَانٍ فِي آنٍ وَاحِدٍ. فَهُوَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا مِنْكَ أَنْتَ كَقَمِيصِكَ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ قَرِيبًا مِنْكَ أَنْتَ كَقَمِيصِكَ، لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ فِي هَدَيْنِ الْمَكَانَيْنِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ.

لَكِنْ يَظْهَرُ شَخْصٌ عَلَى سَاحَةِ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ، حَيَوِيٌّ فِي تَقَدُّمِ الْمَلَكُوتِ مِثْلَ مَارْتِنِ لُوْتِرَ. أُدْرِكُ جَيِّدًا أَنَّ مَارْتِنَ لُوْتِرَ عَاشَ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ حَيَاتِهِ مُرْتَدِيًا هَذَا الْقَمِيصَ الشَّيْطَانِيَّ الَّذِي طَارَدَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ. وَمِنْ خِبْرَاتِ لُوْتِرَ، كَمَا أَشْرْتُ سَابِقًا، وَالَّتِي دَعَاها "أَنْفَيْشْتُونُج" (Anfechtung) الشَّيْطَانِ، أَيِ الْهُجُومِ الْجَامِحِ وَالْقَاسِي مِنَ رَئِيسِ مَمْلَكَةِ الظُّلْمَةِ عَلَيْهِ، يُمَكِّنُ أَنْ نَفْهَمَ لِمَاذَا كَانَ الشَّيْطَانُ هَدَفًا - أَعْنِي لِمَاذَا كَانَ لُوْتِرُ هَدَفًا لِلشَّيْطَانِ. فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُسْقِطَ لُوْتِرَ، يَكُونُ قَدْ قَضَى عَلَى الْإِصْلَاحِ.

لَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّ لَنَا بَعْضَ التَّعْزِيَةِ فِي أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَبْعَدِ أَنْ نَلْتَقِيَ خِلَالَ حَيَاتِنَا بِالشَّيْطَانِ. فَهُوَ لَدَيْهِ فَرِيسَةٌ أَهْمٌ. فَإِنْ كَانَ سَيَهْجُمُ بِنَفْسِهِ عَلَى أَحَدِهِمْ، لَنْ يُطَارِدَنَا نَحْنُ الْبُسْطَاءَ. لَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَدَيْهِ جَيْشٌ مِنَ الْأَتْبَاعِ، أَيِ الشَّيَاطِينِ، الَّذِينَ يُؤَدُّونَ الْعَمَلَ عَنْهُ. وَرُبَّمَا يُحِيْطُ بِنَا هُوَ لَا، وَيَقْتَرِبُونَ مِثْلَ ثِيَابِنَا. فَقَدْ يُحَاصِرُنَا مَبْعُوثُونَ شَيْطَانِيُونَ، لِذَا يَجِبُ أَنْ نَحْتَرِسَ. لَكِنَّ رَئِيسَهُمْ نَفْسُهُ - مِنَ الْمُسْتَبْعَدِ أَنْ نَلْتَقِيَ أَنْتَ أَوْ أَنَا بِهِ يَوْمًا. وَأَقُولُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَ كُلِّي الْوُجُودِ. فَهَذِهِ صِفَةٌ نَخْصُ اللَّهُ وَحْدَهُ.

وَهُوَ لَيْسَ غَيْرَ مَحْدُودٍ، وَلَيْسَ كُلِّي الْعِلْمِ. فَالشَّيْطَانُ لَا يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ. الشَّيْطَانُ مَخْلُوقٌ، وَهُوَ مَحْدُودٌ بِمَحْدُودِ طَبِيعَتِهِ الْمَخْلُوقَةِ. تَذَكَّرُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَعْظَمُ مِنَّا. فَالْمَلَائِكَةُ يَتَفَوَّقُونَ عَلَيْنَا فِي الْقُوَّةِ، وَعَلَى الْأَرْجَحِ يَتَفَوَّقُونَ عَلَيْنَا فِي الْمَعْرِفَةِ، وَعَظِيمٌ ذَلِكَ، لَكِنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ أَدْنَى كَثِيرًا مِنْ مُسْتَوَى اللَّهِ نَفْسِهِ. إِذَنْ، دَعَوْنَا لَا نُخْطِئُ بِنَسْبِ صِفَاتِ إِلَهِيَّةٍ إِلَى الشَّيْطَانِ. فَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ، نَحْنُ نُبَالِغُ فِي تَقْدِيرِهِ.

إِذَنْ كَيْفَ يَبْدُو حَقًّا؟ يُخْبِرُنَا الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ بِالكَثِيرِ عَنْ طَبِيعَتِهِ وَكَيْفُونَتِهِ. أَوَّلًا، حِينَ ظَهَرَ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى فِي أُولَى صَفَحَاتِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، دُعِيَ "الْمُحْتَالَ"، "أَحِيلٌ - أَوْ أَمَكْرٌ - جَمِيعَ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ". فَحِينَ اقْتَرَبَ مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ، جَاءَ لِعَوَايَتِهِمَا، فِي مَكْرٍ شَدِيدٍ. تَكَلَّمْنَا عَنْ هَذِهِ الْعَوَايَةِ فِي سِلْسِلَةٍ أُخْرَى، لَكِنْ دَعَوْنِي أَذْكَرُكُمْ كَيْفَ هَاجَمَتِ الْحَيَّةُ أَبَوَيْنَا الْأَوَّلَيْنِ. فَقَدْ طَرَحَتْ عَلَى حَوَاءَ سُؤَالَ هُوَ: "أَحَقًّا قَالَ اللَّهُ لَا تَأْكُلَا مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟" هَذَا السُّؤَالُ سَخِيفٌ مِنْ نَاحِيَةٍ. فَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ لَهُمَا أَلَّا يَأْكُلَا مِنْ كُلِّ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، بَلْ فِي الْوَاقِعِ، قَالَ اللَّهُ لِمَخْلُوقَاتِهِ: "مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ بِحُرِّيَّةٍ، بِاسْتِثْنَاءِ وَاحِدَةٍ". لَكِنْ جَاءَ الشَّيْطَانُ قَائِلًا: "أَحَقًّا قَالَ اللَّهُ إِنَّهُ لَا يُمَكِّنُكُمْ الْأَكْلَ مِنْ أَيِّ شَجَرَةٍ؟" أَيْنَ الدَّهَاءُ فِي ذَلِكَ؟

جَانُ بُولُ سَارْتَرُ، فِي الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ، حِينَ قَدَّمَ حُجَجَهُ ضِدَّ وُجُودِ اللَّهِ، بَنِيَتْ إِحْدَى الْحُجَجِ عَلَى افْتِرَاضِ حُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِ. وَقَالَ إِنَّهُ إِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ حُرًّا حَقًّا، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مَوْجُودًا، لِأَنَّهُ طَالَمَا هُنَاكَ إِلَهٌ يَمْلِكُ الْقَوَانِينِ، مَهْمَا كَانَتْ بَسِيطَةً، أَيْ طَالَمَا كَانَ لِلَّهِ سِيَادَةٌ، لَا يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقِلًّا. فَالِاسْتِقْلَالُ يَعْنِي أَنْ تَكُونَ قَاعِدَةً لِنَفْسِكَ - قَانُونًا لِنَفْسِكَ، وَأَلَّا تُقَدِّمَ حِسَابًا لِأَحَدٍ. وَالرَّأْيُ الْكِتَابِيُّ هُوَ أَنَّ اللَّهَ حُرٌّ، وَهُوَ يَخْلُقُ خَلِيقَتَهُ، وَيَمْنَحُ الْبَشَرَ الْحُرِّيَّةَ، لَكِنَّ هَذِهِ الْحُرِّيَّاتِ مَحْدُودَةٌ بِأَحْكَامِ اللَّهِ. وَقَالَ سَارْتَرُ إِنَّكَ مَا لَمْ تَكُنْ حُرًّا تَمَامًا، فَأَنْتَ لَسْتَ حُرًّا بِالْحَقِيقَةِ. فَمَا لَمْ تَكُنْ مُسْتَقِلًّا، لَنْ تَكُونَ حُرًّا الْبَتَّةَ.

هَذَا الْفَيْلَسُوفُ رَفِيعُ الشَّانِ، فِي الْقُرْنِ الْعِشْرِينَ، قَدَّمَ الْحُجَّةَ نَفْسَهَا الَّتِي قَدَّمَتَهَا الْحَيَّةُ فِي الْجَنَّةِ، لِأَنَّ الْإِفْتِرَاضَ الْمَاكِرَ هُوَ: "يَا حَوَاءُ، مَا دَامَ اللَّهُ قَدْ وَضَعَ قَيْدًا عَلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ، فَهُوَ إِذَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلَا مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ". ثُمَّ انْتَقَلَ مِنَ الْمَكْرِ إِلَى الْهَجُومِ الْمُبَاشِرِ، قَائِلًا... أَجَابْتُهُ حَوَاءُ: "قَالَ لَنَا اللَّهُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ، لَكِنْ إِنْ أَكَلْنَا مِنْ هَذِهِ بِالذَّاتِ سَنَمُوتُ". فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ: "لَنْ تَمُوتَا، بَلْ تَكُونَانِ كَاللَّهِ". وَكَانَ هَذَا هُوَ الْإِغْرَاءُ الَّذِي قَدَّمَ لِأَبَوَيْنَا الْأَوَّلَيْنِ؛ لَيْسَ فَقَطَّ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، بَلْ بِالتَّأَلِيهِ.

وُصِفَ الشَّيْطَانُ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ بِأَنَّهُ كَذَّابٌ. وَنَقَرْنَا أَنَّهُ كَانَ كَذَّابًا مُنْذُ الْبَدْءِ، وَأَنَّهُ أَبُو الْكَذَّابِ. وَمَرَّةً أُخْرَى، مَا أَدَّى إِلَى دُخُولِهِ تَارِيخِ الْفِدَاءِ هُوَ الْكِذْبَةُ الْكُبْرَى الَّتِي قَالَهَا لِآدَمَ وَحَوَاءَ، وَشَمَلَتْ وَعَدًّا بِالِاسْتِقْلَالِ: "إِنْ أَرَدْتُمَا الْحُرِّيَّةَ فِعْلًا، إِنْ أَكَلْتُمَا مِنْ هَذِهِ، فَإِنَّكُمْ تُؤَكِّدَانِ اسْتِقْلَالَيْتِكُمَا، وَتَطْرَحَانِ عَنْكُمَا نِيرَ هَذَا الْإِلَهِ الْمُقَيَّدِ، وَتَكُونَانِ كَاللَّهِ. سَتَكُونَانِ آلِهَةً، وَلَنْ تَعُودَا خَاضِعِينَ لَهُ". هَذِهِ كِذْبَةٌ. وَمَعَ ذَلِكَ، كُلَّمَا أَخْطَأْنَا، نُصَدِّقُ الْكِذْبَ. لِأَنَّهُ كُلَّمَا أَخْطَأْنَا، نُفَضِّلُ رَعَبَاتِنَا عَلَى رَعَبَاتِ اللَّهِ. وَنُنْكِرُ حَقَّ اللَّهِ فِي أَنْ يَمْلِكَ عَلَيْنَا. فَبِأَبْسَطِ خَطِيئَةٍ، تَرْتَكِبُ خِيَانَةَ عَظْمَى، لِأَنَّنَا نَحَاوِلُ الْإِطَاعَةَ بِمُلْكِ اللَّهِ عَلَى حَيَاتِنَا، غَيْرَ رَاغِبِينَ أَنْ يَمْلِكَ اللَّهُ عَلَيْنَا، مُصَدِّقِينَ هَذِهِ الْكِذْبَةَ الَّتِي قِيلَتْ مِنَ الْبَدْءِ.

إِذْنٌ، هُوَ حَازِقٌ وَمَا كِرٌ. لَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ، لَكِنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ يَصِفُ الشَّيْطَانَ بِأَنَّهُ قَوِيٌّ بِشَكْلِ لَا يُصَدَّقُ. هُوَ لَا يُضَاهِي اللَّهَ، أَوْ يُضَاهِي الرُّوحَ الْقُدُسَ. فَهُوَ لَيْسَ كَلِيٍّ الْقُدْرَةَ، لَكِنَّهُ قَوِيٌّ، وَأَقْوَى مِنَّا. تَذَكُّرُونَ حِينَ قَالَ رَبُّنَا لِسَمْعَانَ إِنَّهُ سَيَخُونُهُ وَيُنْكِرُهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، اِخْتَجَّ بَطْرُسُ قَائِلًا إِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ. أَتَذَكُّرُونَ مَا قَالَهُ يَسُوعُ؟ "سَمْعَانُ، سَمْعَانُ، هُوَذَا الشَّيْطَانُ طَلَبَكُمْ لِكِي يُغْرِبَكُمْ كَالْحِنْطَةِ!" "أَنْتَ تَطُنُّ أَنَّكَ قَوِيٌّ، لَكِنَّكَ فَرِيْسَةٌ سَهْلَةٌ. أَنْتَ مُهِمَّةٌ سَهْلَةٌ عِنْدَ رَيْسِ مَمْلَكَةِ الظُّلْمَةِ". كَانَ الشَّيْطَانُ أَقْوَى كَثِيرًا مِنْ بَطْرُسَ. وَالصُّورَةُ الَّتِي وُصِفَ بِهَا فِي الْعَهْدِ الْحَدِيدِ هُوَ أَنَّهُ أَسَدٌ زَائِرٌ، يَجُولُ مُلْتَمِسًا مَنْ يَبْتَلِعُهُ.

الْأَسَدُ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ دَائِمًا رَمْزٌ لِلْقُوَّةِ. وَقَدْ اسْتُخْدِمَ إِبْجَائِيًّا عَنْ أَسَدٍ يَهُودًا، أَيِ الْمَلِكِ الَّذِي سَيَمْتَمِعُ بِقُوَّةِ مَلِكِ الْحَيَوَانَاتِ. لَكِنَّ فِي التَّطْبِيقِ السَّلْبِيِّ لِلْكَلِمَةِ، وَصِفَ الشَّيْطَانُ بِأَنَّهُ أَسَدٌ زَائِرٌ، لَيْسَ يُوَسِّعُنَا مُضَاهَاتُهُ. لَكِنَّ، كَمَا قُلْتُ، لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ الصِّفَةُ الإِلَهِيَّةُ لِلْقُدْرَةِ الْكَلْبِيَّةِ. فَقُوَّتُهُ مَحْدُودَةٌ.

وَهُنَاكَ صُورَةٌ أُخْرَى فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ تُوجِي بِأَنَّهُ بِقَدْرِ قُوَّةِ هَذَا الْأَسَدِ، الَّذِي يُحَاوِلُ ابْتِلَاعَنَا، لَكِنَّ قُوَّتَهُ وَمَكْرَهُ يُمَكِّنُ مُقَاوَمَتَهُمَا. وَنَقْرًا هَذِهِ النَّصِيحَةَ، بِأَنْ نُقَاوِمَهُ. وَمَاذَا سَيَفْعَلُ؟ سَيَهْرُبُ مِنَّا. اُنْحَيْلِ فِي ذَهْنِي هَذَا الْأَسَدَ الصَّخْمَ، وَالْمَقْتُولَ الْعَضَلَاتِ، يَفْتَرِبُ مِنَّا وَيَزَارُ وَيُكَشِّرُ عَنْ أَنْيَابِهِ. لَكِنَّ إِنْ قَاوَمْنَا، سَيُصَابُ بِالذَّعْرِ وَيَنْسَحِبُ فِي جُبِنِ.

فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ، نَتَعَلَّمُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَدَيْهِ قُوَّةٌ، غَيْرُ مُتَّصِلَةٍ فِي بَشَرِيَّتِنَا، لَكِنَّهَا قُوَّةٌ أَعْظَمُ مِنْ قُوَّةِ الشَّيْطَانِ، وَهِيَ قُوَّةُ الرُّوحِ الْقُدُسِ. فَاتِنَا نَقْرًا: "الَّذِي فِيكُمْ أَعْظَمُ مِنَ الَّذِي فِي الْعَالَمِ". فَحِينَ نَتَسَلَّحُ، وَنَلْبَسُ سِلَاحَ اللَّهِ الْكَامِلِ، وَيَسْكُنُ فِيْنَا الرُّوحُ الْقُدُسُ، تَكُونُ لَدَيْنَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الْقُوَّةُ لِمُقَاوَمَةِ الشَّيْطَانِ وَهَزِيمَتِهِ.

أَتَمَّتْ أَنْ تَكُونَ تَرْزِيمَةً "اللَّهُ مَلَجًا لَنَا"، الْمَبْنِيَّةُ عَلَى الْمَزْمُورِ ٤٦، مَحْبُوبَةٌ لَدَيْكُمْ. فَيَا لِلِاهْتِمَامِ الَّذِي تُولِيهِ تِلْكَ التَّرزِيمَةُ، الَّتِي تَرَى اللَّهُ مَلَجًا لَنَا، لِكُونِهِ قُوَّتَنَا الشَّدِيدَةَ، الَّذِي يُدَافِعُ عَنَّا ضِدَّ الشَّيْطَانِ، وَضِدَّ عَالَمِ مَلِيٍّ بِشَيَاطِينِ يُهَدِّدُونَ بِإِبَادَتِنَا. لَكِنَّ اللَّهَ أَعْطَانَا قُوَّةَ كَلِمَتِهِ، قُوَّةَ الْحَقِّ، وَقُوَّةَ الرُّوحِ - "قَالَ الرُّوحُ وَالْمَوَاهِبُ لَنَا" إِلَى آخِرِهِ - وَبِهَا نَسْتَطِيعُ هَزِيمَةَ قُوَاتِ الْجَحِيمِ هَذِهِ. بَعْدَ مَوْتِ لَوْتَرَ، كَانَ تَلْمِيذُهُ الرَّبِّيْسِيُّ، فِيلِيْبُ مِيلَانْكُشُونُ، يَقُولُ لِاتِّبَاعِهِ فِي أَوْقَاتِ الشَّدَةِ، وَكَلَّمَا شَعْرُوا بِالْإِحْبَاطِ: "دَعُونَا نُرْتَلِّ الْمَزْمُورَ ٤٦. لِنُنشِدَ "اللَّهُ مَلَجًا لَنَا". إِذْنُ، يُمَكِّنُ مُقَاوَمَةَ الشَّيْطَانِ.

لَكِنَّ هُنَاكَ الْمَزِيدُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ نَعْرِفَهُ وَنَفْهَمَهُ عَنِ الشَّيْطَانِ. وَسَنَتَطَرَّقُ إِلَى ذَلِكَ فِي مُحَاضَرَتِنَا الْقَادِمَةِ.

الدكتور آر. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة ساتفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشني الألم".